وسائل الإقناع اللساني في كتاب تحسين القبيح وتقبيح الحسن للثعالبي

Means of linguistic persuasion in the book "Improving the Ugly and Denouncing the Beautiful" by Al-Tha'alibi

م.د. سهام مظلوم عباس

الجامعة العراقية / كلية العلوم الإسلامية - قسم اللغة العربية

Dr .Seham Madhloom Abbas

Al iraqia University, College of Islamic Sciences, Department of Arabic Language

e-mail : sehammad.a.alsalman@aliraqia.edu.iq

الملخص

يهدف البحث إلى دراسة وسائل الإقناع اللساني في كتاب (تحسين القبيح وتقبيح الحسن) للثعالبي بوصفها وسائط إقناعية مختزلة بأشكال لفظية بسيطة أم مركبة ذات سلطة تأثيرية فاعلة . انتظمت في أنساق الخطاب البنائية وتحكمت في توجيهه الإقناعي وصياغة منطقه الحجاجي حتى غدت نسقاً كلياً منغرساً في بنية الخطاب العميقة .وقد شكّلت هذه الوسائل ظاهرة بارزة في اختيارات الثعالبي للنصوص التي ضمنها كتابه ، إذ انبنى عمله على رؤية جدلية تعالج القيم من منظور معكوس وتسعى إلى قلب الموازين بين الحسن ، والقبيح ضمن نسق دلالي واعٍ ، يحمل نية التأثير في المتلقي ، ويدعوه إلى الإقناع عبر منظومة علائقية متشابكة من الآليات البلاغية ، والآليات الاستدلالية الحجاجية ، التي سعى الثعالبي من خلالها لتأسيس نوع من النسبية في التعامل مع الأحكام القيمية ، بما يتيح إعادة إنتاج المعنى وتوليد قراءات جديدة للقيم ، انطلاقاً من وعي بلاغي ـحجاجي يوازن بين الإمتاع الفني والفاعلية الإقناعية .

الكلمات المفتاحية : الإقناع اللساني ، كتاب تحسين القبيح وتقبيح الحسن، الثعالبي.

Abstract:

This research aims to examine the means of linguistic persuasion in Al-Tha'alibi's book " Improving the Ugly and Denouncing the Beautiful by Al-Tha'alibi" (The Improvement of the Ugly and the Ugliness of the Beautiful), describing them as persuasive means reduced to simple or complex verbal forms with effective influence. These forms are organized within the structural patterns of discourse, controlling its persuasive direction and shaping its argumentative logic, until they become a comprehensive system embedded in the deep structure of discourse. These methods constitute a prominent phenomenon in Al-Tha'alibi's choices of texts that he included in his book, as his work was based on a dialectical vision that deals with values from an inverted perspective and seeks to turn the scales between good and bad within a conscious semantic system that carries the intention of influencing the recipient and calls him to convince through an intertwined relational system of rhetorical mechanisms and argumentative inferential mechanisms. Through which Al-Tha'alibi sought to establish a kind of relativity in dealing with value judgments, which would allow for the reproduction of meaning and the generation of new readings of values, based on a rhetorical-argumentative awareness that balances between artistic enjoyment and persuasive effectiveness.

Keywords: Linguistic persuasion, The Book of Improving the Ugly and Denouncing the Beautiful, Al-Tha'alibi.

المقدمة

تشكل وسائل الإقناع الركيزة الأساسية في بناء الخطابات التواصلية نظراً لوظائفها الحاسمة في تحقيق المقاصد البلاغية والتأثير في المتلقي ، ولما كان كتاب الثعالبي من النصوص التي تسلط الضوء على جدلية القيم فهو ذو رؤية وظيفية حاملة نية التأثير والتوجيه ، يتجلى ذلك بوضوح في عنوانه قبل الولولج في متن الكتاب ومثل هذا الخطاب لابّد أن ينبني على منظومة من الوسائل الإقناعية لتشكيل خطاب انزيايحي يسعى لبناء ذاكرة جديدة ترسم أفق التلقي وإمكانات التأويل . وقد قسمت الدراسة إلى تمهيد شمل تعريفاً بالمدونة وعرضاً موجزا لمفهوم الإقناع اللساني ، ومبحثين رئيسين كونهما يمثلان عيارين أساسين تتحقق بهما النجاعة الإقناعية المبحث الأول شمل الآليات البلاغية لبناء الإقناع اللساني وضم صورًا من فنون القول التي كان لها الدور الفاعل في المسار الإقناعي كالتشبيه ، والاستعارة ، والجناس أماالمبحث الثاني : فضم الآليات الإستدلالية للإقناع اللساني وشملت صوراً استدلالية متنوعة كالاستدلال بالسرد والاستدلال بالمقارنة والاستدلال بحجة التعدية والاستدلال بالحجج الجاهزة ، وتراكم الحجج وتكامل الاستدلالات وخاتمة بأبرز النتائج التي توصل إليها البحث.

التمهيد:

أولاً: التعريف بالمدونة :

يُعد كتاب (تحسين القبيح وتقبيح الحسن) من المصنفات الأدبية التي تكشف عن براعة مؤلفها في تجاوز المألوف ، واستنطاق اللغة خارج حدودها . ألفه أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي النيسابوري ((١)) صاحب التأليف الأدبية اللغوية الكثيرة أحد أقطاب الأدب في القرن الرابع الهجري الذي استحق؛ لعلو كعبه في البيان وسعة إطلاعه أن يلقب بجاحظ نيسابور((٢)) وجاحظ زمانه((٣)) في إشارة إلى تشابه أفقه الأدبي، والنقدي مع الجاحظ

(١) ينظر ونزهة الألباء في طبقات الأدباء ،لابي البركات الأنباري ، تحق : ابراهيم السامرائي ، مكتبة المنار ، ط٣، ١٩٨٥ / ٢٥٦.

(٢) ينظر دمية القصر وعصرة أهل العصر ، علي بن الحسن الباخرزي ،تحق محمد التونجي ،دار الجيل بيروت ط١، ١٩٩٣(٢/ ٩٦٦).

(٣) ينظر الوافي بالوفيات ،صلاح الدين بن ايبك الصفدي ،تحق :احمد الارؤناط،وتركي مصطفى ،دار احياء التراث العربي ط١،: ١٩/ ١٣٠.

من حيث عمق النظر وسلاسة الأسلوب وميله إلى التأمل في الظواهر في زوايا غير مألوفة .

يمثل هذا الكتاب بنية خطابية متماسكة تجمع بين جاذبية العنوان وجدية المحتوى إذ يقوم المؤلف عبر اختيار لغوي دقيق وبناء محكم بانتاج خطاب يعيد فيه توزيع القيم الاجتماعية بحسب تنوع الأحكام القيمية للأشياء من خلال مدح ما ارتبط الوعي الجمعي بذمه ، وذم ماجرى العُرف على مديحه ؛ ليشتغل النص كاداة تداولية ناقدة تنحرف عن النموذج القيمي المألوف. وهذا المُصَنف كما أشار محققه ثالث ما ألفه الثعالبي في سياق معالجة اختلاف الناس في مدح الأشياء وذمها فيذكر ما ينماز به كتابه هذا على الكتابين الآخرين وهما (اليواقيت والمواقيت) ، و(اللطائف والطرائف) وهما يجمعان بين مدح الشيء وذمه . فيما يدور موضوع هذا الكتاب حول تحسين ما هو مذموم وذم ماهو حسن وممدوح((١).) ويذكر الثعالبي إنه قد أودع فيه « لمعاً من غرر البلغاء ونكت الشعراء في تحسين القبيح وتقبيح الحسن، إذ هما غايتا البراعة والقدرة على جزل الكلام في سر البلاغة وسحر الصناعة «((٢)).التي تحتل أعلى مراتب البلاغة كما قال أبوهلال العسكري « فأعلى رتب البلاغة أن يحتج للمذموم حتى يخرجه في معرض المحمود وللمحمود حتى يصيره في صورة المذموم «(٣)

وللثعالبي قصب السبق في كتابة هذا النوع من المؤلفات كما وردّ في مقدمته وأشار إلى ذلك بقوله : « وما أراني سبقتُ إلى مثله في طرائف المؤلفات وبدائع المصنفات « ((٤)) وقد قسم كتابه إلى قسمين : خص القسم الأول (بواحدٍ وثلاثين) عنواناً خصها بذكر المحاسن . أما القسم الثاني فقد حوى على (ثمانية وثلاثين) عنواناً خصها بذكر المقابح .

وضمن كلا القسمين آيات من القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية الشريفة ، وأقوال الصحابة، وأبيات من الشعر ونصوص من النثر ، والأخبار كما جرت عادته في معظم مؤلفاته . ويتباين وجود هذه النصوص كماً ونوعاً في عنوانات القسمين بحسب حاجة المؤلف وهو يعيد طرح النصوص بتبنيه التحول القيمي من خلال مدح ما يُتداول ذمه ، وذم ما يتداول مدحه فهو يتجاوز البنية التقليدية للخطاب ؛ ليشكل خطاباً انزياحياً دلالياً مقصوداً يهدف إلى زعزعة الاستقبال التقائي لمتلقيه وإعادة إنتاج المعنى للقيم من جديد .

---

(١) ينظر كتاب تحسين التقبيح وتقبيح الحسن ، ابومنصور الثعالبي، تحق شاكر العاشور ، ط١ ، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م. ٤.

(٢)المصدر نفسه : ٢٧-٢٨.

(٣) كتاب الصناعتين الكتابة والشعر ،لابي هلال العسكري ،تحق: محمد علي البجاوي ،محمد ابو الفضل ابراهيم ،دار الفكر العربي د.ت ،: ٥٣

(٤) .تحسين القبيح وتقبيح الحسن : ٢٨

ثانياً: مفهوم الإقناع اللساني :

الإقناع لغة : تشير مادة (قنع) في أغلب المعاجم إلى معنى الرضا والقانع بمعنى الراضي، فقنع بنفسه قنعاً ، وقناعة رضي ، وقد قِنع بالكسر يقنع قنوعاً وقناعة إذا رضي.((١))

وفي الإصطلاح : هو حمل النفوس على فعل شيء أو إعتقاده أو التخلي عن فعله ((٢)) فهو «عملية خطابية يتوخى بها الخطيب تسخيرالمخاطب لفعل ، أو ترك بتوجيهه إلى إعتقاد قول يعتبره كل منهما شرطاً كافياً ومقبولاً للفعل أو الترك «((٣)) فالاقناع عملية تستهدف التأثير في الآخر وإخضاعه لفكرة ما .

في ضوء المعنى اللغوي المتعلق بالحمل على القبول ، والرضا ومعناه الإصطلاحي لتوجيه سلوك المتلقي والتأثير فيه يُفهم الإقناع اللساني بوصفه إستراتيجية خطابية تهدف إلى التأثير في المتلقي عبرتوظيف مقصود و ممنهج للغة يُسخر فيه آليات لغوية ، وحجاجية «فالعملية الإقناعية ظاهرة لسانية منطقية «((٤))توظف لتعديل مواقف المتلقي ، أو توجيه سلوكه ضمن سياق تواصلي محدد.

ولما كان كتاب الثعالبي يقوم على قلب المعاييرالقيمية لدى المتلقي الأمر الذي جعله حافلاً بموجهات وآليات إقناعية لسانية حملت عبء التحول في المنظور القيمي عبر مفارقات اعتمدت في بنائها على آليات بلاغية وأخرى حجاجية هدفت إلى إيجاد نوعاً من النسبية في التعامل مع المطلقات الأخلاقية وإبراز نسبيتها وفقاً لظروف وسياقات مختلفة مما جعل نصوص كتابه ضرباً من التوجيه الحجاجي الأقناعي الذي يرتجى من ورائه تيقين متلقيه بنسبية تلك القيم المحدثة التي يؤسس ركائزها بنصوصه ويدعوه إلى الإقناع بها عبر منظومة علائقية تفاعلية من الآليات اللسانية التي غدت نسقاً متكاملاً حوت جملة من الآليات الاسلوبية والحجاجية بمفهوم كلي استوعبت اختلاف الخطابات وأفصحت إن لكل عصر وموقف خطابه وطرحه اللساني الذي لايخلو من انسجام كما أن لكل خطاب روحه المائزة وإن ما بدا منفصلاً متباعداً هو في جوهره مؤتلفاً متعالقاً.

المبحث الأول

(١) ينظر لسان العرب : مادة قنع .

(٢) ينظر منهاج البلغاء وسراج الإدباء ، ، حازم القرطاجني ، تح ،محمد بن خوجة ، دار الغرب الاسلامي ، د.ت ،٢٠.

(٣) حول التقنين الارسطي لطرق الإقناع ومسالكه مفهوم الموضوع ، ، حمو النقاري ، مجلة كلية الاداب والعلوم الانسانية بفاس ، العدد ٩، ١٩٨٧، ٨٨.

(٤) استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية ، عبد الهادي ظافر الشهري ، دار الكتاب الجديد المتحدة ط١، ٢٠٠٤. ٤٥٠.

آليات الإقناع اللساني في المدونة :

يعد الاقناع اللساني من أبرز وظائف اللغة التواصلية إذ يستند على جملة من الآليات الخطابية التي توظف بغية التأثير المتلقي وإقناعه بوجهة نظر ، أو دفعه إلى تبني سلوك محدد . وتتمظهر آليات الإقناع من خلال اشتغال عدد من الوسائط اللغوية والبلاغية ، والأليات الحجاجية ومن إبرز الأليات الإقناعية اللسانية في الكتاب:

أولاً: الآليات البلاغية للإقناع اللساني : لاشك أن تحقيق الاقناع والتأثير في التخاطب الإنساني يقتضي إعتماد آليات بيانية بوصف البلاغة « عتاداً بنائياً تبليغياً يتقصد أساساً التأثير في متلقي الخطاب «((١))؛ ولأن النص « شكلاً ومحتوى عبارة عن بنيات بلاغية تنجز وظيفة استراتيجية ضمن العمل التواصلي وهي استمالة المتلقي أولاً ثم إقناعه بعد ذلك بالمضمون المعرفي والأخلاقي الذي يحمله الخطاب «((٢))الأمر الذي يجعل من الأدوات البلاغية سمة مركزية في بنية الخطاب التواصلي ، وركناً أساسياً في صناعة التأثير والتوجيه داخل العملية التخاطبية «فالصور البلاغية عملية أسلوبية تنشط الخطاب ، ولها وظيفة إقناعية «((٣))ومن تلك الوجوه البيانية التي انتجت صوراً تعبيرية لها دور فعال في توصيل المعنى والإقناع اللساني :

أ. التشبيه : من أبرز الوسائل البلاغية التي وظفها الخطاب العربي لتحقيق مقاصده الاقناعية وحده « أن تثبت لهذا معنى من معاني ذاك أوحكماً من أحكامه « ((٤))وهو بهذا يمثل جهازاً دلالياً يعيد هيكلة المعنى عبر علاقة إسقاط بين مجاليين دلاليين بهدف توجيه المعنى وتقريبه إلى ذهن المتلقي وتفعيل الاستجابة الاقناعية للخطاب وقد وعى البلاغيون قيمة هذا الاسلوب وأشاروا إلى مركزية دوره في ترسيخ المعاني وتجسيدها بقولهم « وقد اتفق العقلاء على شرف قدره وفخامة أمره في فن البلاغة وأن تعقيب المعاني به يضاعف قواها في تحريك النفوس الى المقصود بها مدحاً كانت أو ذماً «((٥))إذ يسهم التشبيه في تقريب المعاني المجرد ة عبر ربطها بأنساق حسية قريبة إلى تجربة المتلقي فيعمل على استمالته وتوجيهه بما يخدم الغايات الإقناعية للخطاب داخل السياق التواصلي.

(١) نظرية الحجاج تطبيق على نثر ابن زيدون ، عزيز لدية ، عالم الكتب الحديث ، أربد. الأردن ٢٠١٥، ٨١

(٢) المصدر نفسه : ٩٤.

(٣) التداولية والحجاج مداخل ونصوص ، صابر الحباشة ، ط١ ،٢٠٠٨، ١١.

(٤) أسرار البلاغة في علم البيان ، عبد القاهر الجرجاني ، تحق : عبد الحميد هنداوي ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان ،ط١، ٢٠٠١: ٦٨

(٥) الايضاح في علوم البلاغة ، جلال الدين محمد بن بن عبد الرحمن الخطيب القزويني ، وضع حواشيه ، ابراهيم شمس الدين ، ط١، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، ١٤٢٤، ٢٠٠٣، ١٦٤

استثمرالثعالبي التشبيه لتنفير متلقيه من التعلق بالمواقع السلطوية (بتقبيح مصاحبة السلطان وخدمته) بأيراده مجموعة من النصوص ولاسيما تلك التي تحمل صوراً تشبيهية من أجل إنتاج موقف إقناعي حاد منها :

«وكان ابراهيم بن العبّاس يقول : مَثلُ أصحاب السلطان كقوم أرتقوا جبلاً ،ثم وقعوا منه ، فكان أبعدُهم في المرتقى أقربَهم من التلف «((١)).

ينهض التشبيه التمثيلي في النص ببناء فكرته الإقناعية حول تقبيح عمل السلطان وتوليد موقف تحذيري منه إذ يفتتح النص (بمثل) استعداداً لقبول صورة مركبة يمتد عبرها التمثيل بالانتقال من المعنى المجرد في (أصحاب السلطان) إلى المعنى الحسي في (قوم ارتقوا جبلا ...) والذي عملت على ربطه الأداة (الكاف) لتوحي بدرجة التماثل والتقارب بين الطرفين بشكل يجعل المتلقي يدرك النتيجة بشكل مرئي فالمراد منها أن العلاقة بالسلطان كلما أزدادت علواً تضاعف خطرها فالارتقاء إلى منازل القرب من السلطان يوازي التهيؤ لسقوط أوجع وأفجع . وتتعضد الصورة التشبيهية باستعمال الطباق الحاصل في (أبعدهم) ، و(اقربهم) والذي يوحي بمفارقة دلالية فأبعدهم في المرتقى _(علو المنزلة)أصبح في لحظة التحول (السقوط) _هو الأقرب إلى التلف فحركية التضاد تعزز الأثر الاقناعي لمتلقيه بالحذر من التقرب للسلطان . و بذلك يحول النص القرب من السلطان من كونه طموحاً إلى مصير محفوف بالخطر والهلاك وهذا ما سعى إليه الثعالبي .

ويغدو التشبيه من الأساسيات التي تحكمت في حركة الخطاب الاقناعي ففي تقبيح العقل يذكر الثعالبي فصلاً قصيراً من فصول ابن المعتز وهو يقول عنها « ومنها فصلٌ في نهاية الحسن وجودة التمثيل ، وهو قوله: العقل كالمرآة المجلّوة ، يرى صاحبها مساوئ الدنيا ، فلا يزال في صحوه مهموماً متعذر السرور حتى يشربَ النبيذ فأذا ابتدأ بشربه صدىءَ عقلُهُ بمقدار مايشرب ، وإن أكثر منه غشيه الصدأُكله حتى لاتظهرُ له صورة تلك المساوئ فيفرح ويمرح. والجهلُ كالمرآة الصدئة فلاُيرى صاحبها إلاّمسروراً قبل الشرب وبعده .»((٢))يتصدر النص حكماً نقدياً للثعالبي يثني فيه على فصل ابن المعتز موضحاً إنه يبلغ أوج الحسن وجودة التمثيل مما يعكس تميز النص ومكانته إذ يعقد موازنة إقناعية بين صورتي (العقل ، الجهل) عبر تشبيه كلاً منهما بمرآتين (المجلوة ، الصدئة) إذ شبه العقل بمرآة مجلوة تعكس مساوئ الدنيا بوضوح فيغدو صاحبها دائم الوعي مهموماً لاينفك عنه الهم إلا حين يلجأ إلى تغييب وعيه عبر شرب

(١) تحسين القبيح وتقبيح الحسن : ٩٠

(٢) تحسين القبيح وتقبيح الحسن : ٧٧

النبيذ الذي يكدر العقل بمقدار ما يشربه إذ يتناسب إنطفاء العقل مع درجة التغييب فيغدو مبتهجاً بواقع لايدركه .وشبه صورة الجهل بالمرآة الصدئة التي لاتعكس شيئاً فيعيش صاحبها في سرور دائم قبل الشرب وبعده . فيعيد النص عن طريق ما أحدثه التشبيه من موازنة تأطير العقل لابوصفه قيمة ايجابية مطلقة ؛ بل بوصفه عبئاً إدراكياً ومعرفياً يأخذ بصاحبه نحو الهم والحزن فيدفع القارئ نحو إعادة النظر في القيم الذهنية التقليدية وهذا مقصود الثعالبي في كتابه.

وفي تقبيح الأصدقاء والأخوان:» قال إبراهيم بن العبّاس : مثل الإخوان كالنار قليلُها متاع وكثيرها بوار

«((١))يعيد النص تشكيل النظرة إلى كثرة الإخوان من كونها ميزة اجتماعية إيجابية إلى صورة سلبية يحذرمن التوسع والإفراط فيها عن طريق التمثيل إذ يقوم التشبيه بين (الإخوان ، النار) على أساس المشابهة في الأثر (متاع ، بوار) المرتبط بالكم (قليلها، كثيرها) فكما أن النار القليلة نافعة والكثيرة مهلكة فكذلك الإخوان قلتهم نفع وكثرتهم ضرر وبذلك يعيد التشبيه صياغة الصورة النمطية التي تمجد كثرة الإخوان ليظهرهم كخطر مدمرمما يحقق أثراً إقناعياً يحث المتلقي على الحذر من الإفراط في صحبة الإخوان .

ومن أثر التشبيه في تقبيح التأنّي : « إياكم والتأنّي في الأمور ، فإنَّ الفرص تمرُّمرَّ السحاب والآفاتُ في التأخيرات «((٢)) تشد الأداة (إياكم) إنتباه المتلقي لترسم موقفاً من الحذر واليقظة تدعمه صورة التشبيه الحركية التي تمثل جوهر الخطاب الاقناعي إذ يشبه الفرص بالسحاب الذي يمر مروراً سريعاً فالسحاب لايمكث طويلاً وكذا الفرص لا تنتظر فالتأخر في اغتنماها سبباً في فواتها فيحول التشبيه التأني من قيمة ايجابية إلى سلوك يجب الحذر منه فهو يؤدي الى الفوات والندم .

ب: الاستعارة : إحدى المفاهيم البيانية الأصيلة التي تسهم إثراء المعنى وتكثيفه عن طريق تشذيب أحد أطراف علاقة المشابهة وتتمثل في « أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر مدّعياً دخول المشبه في جنس المشبه به ، دالاً على ذلك بأثباتك للمشبه ما يختص المشبه به «((٣))فتمنح الخطاب بعداً دلالياً مكثفاً وتبرز قيمتها في الخطاب التواصلي بإستمالة المتلقي والتأثير فيه. إذ تعمل على دفع المتلقي إلى تقبل الفكرة دون ترددوتضعه في موضع لايقبل

(١) المصدر نفسه : ١٠٤

(٢) المصدر نفسه : ٩٥.

(٣) مفتاح العلوم ، ابويعقوب يوسف بن محمد السكاكي (ت ٦٢٦هـ) ، تح: د. عبد الحميد الهنداوي ، مشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، ط١، بيروت ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م،٤٧٧.

الشك فهي « تجعل الحكم الذي تشتبه قطعياً به لدى المخاطب بفضل خاصية المطابقة يصبح المخاطب في وضع لايمكنه معه الشك في الحكم الذي تثبته الاستعارة «((١))فيصبح الإقناع ميزة من ميزات التخاطب الاستعاري الأمر الذي يجعل منها آلية أساسية للتواصل والتأثير ((٢)) وبذلك تعد بنية بيانية إقناعية تؤسس خطاباً قادراً على النفاذ الوظيفي فأن الدفع إلى الفعل أهم وظيفة يسعى المتكلم إليها لإبلاغ مقاصده وإنجاز غاياته .

ومنها في تقبيح الشراب : «عاتب الضحّاكُ بن مزاحم صديقاً له على شرب النبيذ ، فقال : إنّما أشرُبُهُ لأنه يهضمُ الطعام . فقال ما يهضمُ من دينك أكثر . وقيل لبعض الحكماء إشرب معنا النبيذَ . فقال : لا أشربُ ما يشربُ عقلي «((٣)) تؤدي الاستعارة في النص وظيفة اقناعية تقوي الرفض القيمي لتقبيح فعل شرب النبيذ وإقناع المتلقي بضرره حين يرد الضحاك على تبرير صاحبه بقوله : (ما يهضم من دينك أكثر) ؛ فهو يستعير فعل (الهضم) بنقل معناه الحسي إلى المعنى المعنوي (عالم القيم) فيصور النبيذ وكأنه لايهضم الطعام ؛ بل يهضم الدين ويفسده . وكذلك في قول الحكيم (لا أشرب ما يشرب عقلي) نلحظ استعارة قائمة على اسناد فعل (الشرب) إلى النبيذ إذ يتحول من مشروب إلى كائن يشرب العقل وهي صورة غريبة تبرز الضرر العقلي المترتب على شربه فيتحول النبيذ من كونه مشروباً إلى عامل لتهديم القيم الجوهرية عبر العلاقات الاستعارية التي « متى ما كانت غريبة وغير مألوفة وحية استقبلها المتلقي بعجب ودهشة «((٤)) فيتحقق التقبيح بها لينتج وعياً يقينياً اقناعياً بمخاطر الشراب دون اللجوء إلى الخطاب الوعظي المباشر.

تقبيح الأدب :» كان يُقال مالٌ عقيم خيرٌ من أدبٍ ولود وكلب صيود خير من أسد قعود» ((٥)) يسعى النص لإعادة تحريك وعي المتلقي نحو المنفعة المادية لا القيمة المجردة عبر الاستعارة المكنية المتمثلة بـ (مال عقيم) ، و (أدب ولود) التي تعمل على تشخيص المفاهيم المجردة وربطها بالعقم والولادة لخلق مفارقة ذهنية انتجتها لفظة المفاضلة والتي توحي بأن نتاج الأدب (ولادته) لا نفع له أمام (المال)وان كان لايثمر. ويتعزز الأثر الإقناعي للاستعارة بتكرار لفظة المفاضلة (خير) التي عضدت المعنى فقدمت المفاضلة النفع العملي المتمثل بـ(المال

(١) اللسان والميزان ، طه عبد الرحمن ، الدار البيضاء ، المركز الثقافي العربي ، ط٢، ٢٠٠٦، ٣١٣.

(٢) الصورة والثقافة والاتصال ، محمد العبد ، فصول مجلة النقد الادبي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، العدد ٦٢/ ربيع وصيف ٢٠٠٣، ١٣٨.

(٣) تحسين القبيح وتقبيح الحسن : ١١٧-١١٨

(٤) بلاغة الإقناع دراسة نظرية تطبيقية ، عبد العالي قادا ، ط١، كنوز المعرفة ١٤٣٧هـ-٢٠١٦م، ١١٥.

(٥) تحسين القبيح وتقبيح الحسن : ٨٠ .

العقيم)، و(كلب الصيد) على (الأدب الولود) و(الأسد القعود) رمزالهيبة والنفع المعطل فحقق البناء الاستعاري فضلاً عن التكرار بعداً إقناعياً مزدوجاً لتقويض الصورة الايجابية للأدب.

وبالاستعارة يقلب المفهوم الثقافي للذهب من الترف والثراء الى الفتنة واللؤم ومنه ماجاء في في تقبيح الذهب : « قال سهل بن هارون : اسمُ الذهبُ يُتطيّرُ منه ولا يتُفاءلُ به وهو فتّانٌ لمن أصابه ، رديءٌ لمن رآه وهو لئيمٌ من لؤمه سرعتُهُ إلى بيوت اللئام وابطاؤه عن بيوت الكرام وشكل الشيء منجذب إليه بالمشاكلة والضد وهو من مصائد ابليس ولذلك قالوا أهلكَ الرجالَ الأحمران أي الذهبُ والخمر»[(١)]

يبدأ سهل بن هارون خطابه بإحداث تقبيح وتأثير نفسي عميق في متلقيه فيجعل اسم الذهب مما يتطير منه ولا يتفاءل به إذهو من نفس جذر الفعل (ذهب) الذي يدل على الرحيل والزوال ليرتبط الذهب عنده بالشؤم ويعود إلى تمثيله عبر آلية الاستعارة المكنية إذ يعتمد النص على التشخيص من خلال إسناد أفعال وسلوكيات بشرية إلى (الذهب) فهو (فتان) و(لئيم) ليصبح رمزاً للفتنة واللؤم ويتعزز التقبيح من خلال المفارقة بين سرعته الى بيوت اللئام التي ينجذب إليها وبيوت الكرام التي ينأى عنها وهي استعارات تحول الذهب الى كائن منحاز ضد الفضيلة كما يظهر الذهب لاكمعدن للترف بل أداة للاغواء ويبلغ الخطاب ذروته في التقبيح حين يقرن الذهب بالخمر مستفيداً من الحمولة السلبية للخمر في بناء صورة تنفر المتلقي وتقنعه بخطر الانجذاب إليه والاتجاه نحو الترف المادي .

وعن طريق الاستعارة يوجه نظر المتلقي تجاه (مرحلة الشباب) ويقنعه بالحذر منها ووممما جاء منها في تقبيح الشباب : « قال (ابو الطيب) محمد بن حاتم المصعبي:

لم أقلْ للشباب في كنف اللـ ـه ، وفي ستره غداة استقلا
زائرٌ لم يزلْ مقيماً إلى أنْ سّودَ الصحفَ بالذنوب وولّى »[(٢)]

يقلب النص بالاستعارة المفهوم الموروث عن الشباب من كونه زينة العمر إلى كونه أصل الغفلة ومصدر الخطايا عبر آلية الاستعارة المكنية التي عملت على تشخيص الشباب بوصفه (زائراً) كائناً ذا سلوك أخلاقي مشين وهذا الزائر لم يزل في مقامه حتى يسود الصحف بالذنوب ويمضي ؛ ليصبح الشباب معادلاً للذنوب والندم فعملت الاستعارة على تفكيك التصورات الايجابية المرتبطة بمرحلة الشباب واقناع المتلقي بالحذرمنه لا الإفتخار به .

(١) المصدر نفسه : ٩٣ -٩٤ .
(٢) تحسين القبيح وتقبيح الحسن: ١٠٣.

ج : الجناس : يعد الجناس أحد الاساليب البلاغية ذات البنى الإرتدادية التي تسهم في تحقيق التوازن اللفظي والتأثير النفسي في الخطاب وحدّه» هو أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر وكلام ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها «((١))وهوأيضاً « أن يكون اللفظ واحداً والمعنى مختلفاً «((٢))فبنيته التنظيمية قائمة على التماثل اللفظي والاختلاف الدلالي مؤسساً بذلك لآلية تواصلية من خلال تفعيل دور المتلقي في إنتاج الدلالة الجناسية ((٣))بوصفه شريكاً فاعلاً في بناء المعنى وإعادة التأويل نتيجة التشابه الصوتي والتباين الدلالي فالجناس بذلك ليس ترفاً لفظياً في الخطاب بل وسيلة لسانية تواصلية تربط بين الشكل والمضمون بما يُسهم في تثبيت المعنى وتعميقه في وعي المتلقي . وأكثر أنواع الجناس تواتراً في النصوص هو الجناس غير التام ويعني إختلاف اللفظين في نوع الحروف أو عددها أو هيئتها أو ترتيبها((٤))ولتلك السعة الاصطلاحية التي يتمتع بها هذا النوع كان أداة تأثيرية فاعلة نبعت من قدرة اللغة على التلاعب بالمبنى لخدمة المعنى وعنصراً فاعلاً في تمكين الإثر الاقناعي للنص .

وبالجناس يرسم صورة تقبيحية للغناء يتجاوز بها اللذة السمعية ومنها ماجاء في تقبيح الغناء والسماع « للبديع الهمذاني رقعة إلى تلميذ له توفي أبوه وخلف مالاً : يامولاي ذلك المسموع من العود يسميه الجاهل نقراً ، ويسميه العاقل فقراً وذلك الخارج من الناي هو اليوم في الآذان زمرٌ وهو غداً في الأبواب سمرٌ» ((٥))يبنى النص على مقدمات ذات طابع تقويمي من خلال استعمال بنية المقابلة بين (الجاهل ، و العاقل)إذ يعقد بهما منظورين مختلفين للغناء يصفهما الجناس اللاحق * الوارد في (نقرا ، وفقرا) والتباين الحاصل في الجناس لايقدم بوصفه اختلافاً

(١) كتاب البديع : عبد الله ابن المعتز ت (٢٩٦هـ)، اعتنى بنشره وتعليق المقدمة والفهارس اغناطيوس كراتشقوفسكي ، دار المسرة – بيروت، ١٩٨٢. ٢٥.

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ،ضياء الدين ابن الاثير ،أحمد الحوفي ، وبدوي طبانة ، دار النهضة المصرية . القاهرة ٢٦٢/١.

(٣) ينظر جدلية الافراد والتركيب في النقد العربي القديم ، محمد عبد المطلب ، الشركة المصرية العالمية . لونجمان ط١ ، ١٩٩٥: ٣٧٣.

(٤) ينظر الطراز المتضمن لإسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي ، مطبعة المقتطف مصر(د.ط) ١٩١٤م،١٨٦/٢

(٥) تحسين القبيح وتقبيح الحسن : ١١٩

*الجناس اللاحق هو اختلاف أحد الأحرف سواء أكان في أول الكلمة أم في وسطها أم في أخرها ويكون الاختلاف في تباعد مخارج الحروف . ينظر ص ١٠٣ التلخيص في علوم البلاغة

**الجناس المضارع هو أن يختلف اللفظان في أنواع الحروف والحرفان المختلفان متقاربان في المخرج ينظر التلخيص في علوم البلاغة ص١٠٣

لفظياً ؛ بل تحول يعيد تأطير المعنى من سطح التلذذ (لذة الطرب) عند الجاهل إلى عمق الافتقار عند العاقل . ويعمل تتابع الازمنة في (اليوم ، وغداً) على تهيئة تلقي خطاب التحول الذي تحمله بنية الجناس ا لمضارع ** في (زمر ، سمر) والذي يربط بين الناي وما يخرج منه اليوم وما سيؤل إليه غداً .فتسهم الصورة الجناسية بتشكيل وعي ثقافي لمتلقيه بأن الغناء ليس فناً محمودًا .

وتعمل التراكيب الجناسية في رسم صورة تحسينية لقول لا « قول لا يدفع البلا وقول نَعم يزيل النِعم» ((١))يعتمد الخطاب على بنية ثنائية متوازنة تقوم على الجناس والتضاد الدلالي الوارد في التراكيب الجناسية كبينة الجناس الناقص ***في (لا ، البلا) والجناس المحرف **** (نَعَم ، والنعِم) إذ تؤسس هذه الثنائيات مجتمعة لبنية تعيد تشكيل الأحكام المألوفة على أساس المآلات فقد ربط تحسين (لا) بمآل ايجابي وهودفع البلاء والضرر ليصبح فعل الامتناع فعلا وقائيا بينما قبحت (نعم) لربطها بزوال النِعم فبالمشاكلة الصوتية والمغايرة الدلالية و يتم توجيه المتلقي واقناعه بضرورة إعادة الصورة النمطية للقولين .

ومنه في تحسين المرض : « ربَّ مرض يكون تمحيصًا لا تنغيصًا ، وتذكيرًا لاتنكيرًا ، وأدبًا لا غصبًا»((٢))

يبدأ النص بمقدمة احتمالية تُستهل بالاداة (رب) التي تفتح لمتلقيها أفق التأويل مما يمنح الخطاب طابعا تأمليا غير جازم ويهيء للمتلقي الانخراط في إعادة تقييم المعنى المألوف للمرض عبر إيراده تراكيب جناسية مزدوجة (تمحيصًا ، تنغيصًا) ،و(تذكيرًا ،تنكيرًا) ،و(وأدبًا ، غصبًا) إذ يعمل بالجناس نفي الانطباعات السلبية السائدة للمرض ويقترح بدائل تأويلية ايجابية جديدة تتقدم على الانطباع الشائع ليصل الى نتيجة منطقية مؤداها ان المرض ليس شرًا محضًا بل قديكون وسيلة للتهذيب والتقويم فمنح الجناس الخطاب قوة اقناعية عبر الايقاع اللفظي المتناظر والمضامين المتعاكسة الناتجة من التوازيات اللفظية المنتظمة.

في تقبيح الولد « إذا ترعرع الولدُ تزعزع الوالد «((٣)) يعتمد النص على بنية شرطية ذات طابع إستدلالي ترسم علاقتها السببية في صورة الجناس اللاحق الوارد بين الفعلين (ترعرع ، وتزعزع

(١) تحسين القبيح وتفبيح الحسن : ٥٥

***الجناس الناقص هوان يختلف اللفظان في اعداد الحروف .ينظر التخليص في علوم البلاغة ص١٠٢

**** الجناس المحرف هو ان يختلف اللفظان في هيآت الحروف .ينظر التلخيص في علوم البلاغة ١٠٢

(٢) تحسين القبيح وتقبيح الحسن : ٧٢

(٣) تحسين القبيح وتقبيح الحسن : ١٠٦

) الذي يعمل على إقناع السامع بوجود علاقة تضاد بين الحدثين فنمو الولد يقابله كبر الأب وشيخوخته فالتماثل الصوتي للجناس قابله تضاداً معنويا مما يعزز وقع الرسالة لمتلقيه في تقبيح الولد وإقناعه بأن نمو الابناء سبب في اضطراب الأباء .

تقبيح المطر : « قد عاقت الامطار عن الاوطار وحالت دون الوصال «((١))يوظف النص بنية الجناس المضارع بين (الأمطار ، والأوطار)إذ يقدم المطر وهو مصدر الخير والخصب كمعيق للوصول للغايات والأمنيات فينتج التماثل الصوتي والتباين الدلالي بين اللفظين توتراً دلالياً مقنعاً يفضي إلى نتيجة تقبيحية للمطر بوصفه سبباً في الحرمان ومنع الوصال فيتحول من مصدر الخير إلى مصدر للعقبات ومعيقا للرغبات فيعيد الجناس توجيه المعنى وتأطيره بما يخدم غايات التقبيح.

(١) المصدر نفسه : ١١٤

المبحث الثاني

الآليات الاستدلالية للإقناع اللساني : يعد الاستدلال من أبرز الأدوات اللسانية التي تسهم في تشكيل الخطاب الإقناعي ، إذ تنهض بدور فاعل في بناء الحجة وتوجيه المتلقي نحو تبني موقف أو فكرة بعينها .الاستدلال في أصله» طلب معرفة الشيء من جهة غيره «((١))وهو بذلك ينطوي على انتقال من مقدمة إلى نتيجة يُراد إثباتها أو ترجيحها ، بما يحقق غاية الإقناع والتأثير. ونظراً للطابع التداولي الذي يتّسم به الإقناع اللساني فأن الاستدلالات المعتمدة فيه تكون طبيعية لا برهانية ؛ إذ أن الفرق الجوهري بينهما أن الاستدلال البرهاني في المنطق والنظريات العلمية يقوم على وضوح نسبي لمقدماته واجراءاته ، في حين الاستدلال الطبيعي يكون رهين العناصر المستمدة من السياقين المقامي والمقالي عند التخاطب((٢)) وهذا مايجعل الاستدلال الطبيعي أنسب للمقامات التواصلية التداولية ، وأكثر ملائمة لبنية الخطاب الإقناعي فتتنوع الآليات الاستدلالية بحسب مقتضيات المقام لأن « وظيفة الاستدلال أضافة إلى مادته وطرقه ،هي التي تتغير من مقام إلى آخر تغيراً يقتضي تنويع تقنيات الاستدلال بحسب الوظيفة المقصودة»((٣)) ومن هنا تتجلى أهمية الآليات الاستدلالية بوصفها بنية متماسكة تتكامل عناصرها لتحقيق التأثير المقصود. ومن أبرز الآليات الاستدلالية التي انتشرت في كتاب الثعالبي :

أ-الاستدلال بالسرد: يُعدّ الاستدلال بالسرد إحدى الآليات الحجاجية التي تستثمر لتوجيه المتلقي نحو تبني موقف محدد، فهو « العرض الموجَّه نحو الإقناع بفعل تم إنجازه أو يُدّعى أنه تم إنجازه « ((٤))إذ يقوم على إستدعاء واقعة أو سرد حدث يُقدم بوصفه حاملاً لقيمة دلالية تتجاوز حدود الحكاية ذاتها .والسرد في سياق الحجاج « ليس مجرد عرض محايد لوقائع بل

(١) الفروق اللغوية ، ابو هلال العسكري ، علق عليه محمد باسل عيود السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ط٣، ٢٠١٣: ٨٦

(٢) ينظر الاستدلال البلاغي ،شكري المبخوت ، دار الكتاب الجديدة المتحدة ط١، ٢٠٠٦. ١٥. واليات الاستدلال الحجاجي في اللسانيات، حافظ اسماعيلي علوي ، مجلة الخطاب ، العدد١٨: ٥٤

(٣) الاستدلال البلاغي : ١٦

(٤) السرد والحجاج ، تيري هيرمان ، ترجمة د. كمال الزماني ، مجلة التواصل الأدبي ، المجلد ١٣، العدد ٢، ٢٠٢٤. : ١٨٢

هو أداة لإقناع الجمهور بوجهة نظر معينة ، «((١))فالسرد في خدمة الحجاج « ((٢))وذلك عبر «استخدام تقنيات تمثل اختيار الأحداث وترتيبها ، واستخدام لغة مشحونة عاطفيا»(٣) فلا يقف السرد عند حدود الإخبار بل يتجاوزها لتحقيق غايات إقناعية، ليشكل بذلك أحد أنماط الاستدلال غير المباشر القائم على الإيحاء واستثمار التجارب ويغدو جزءاً من منظومة التوجيه اللساني .

ومما ورد منه كتاب الثعالبي إذ يعمل السرد على تفسير الحدث السلبي أو المشؤوم على أنه مؤشر غير متوقع للخير كما في تحسين ما يتطيّر منه :» لّما هدّدَ الهادي يحيى بن خالد البرمكي بالقتل إنْ لم يحمل الرشيدَ على خلع نفسه ، رجع إلى داره مغموماً ، وكلَّم غلاما له في شيء، فأجابه بما غاظه ، فلطمه لطمةً انكسرتْ بها حلقةُ خاتمه ، وطاح الفص، فاشتدَّ ذلك عليه وجزع له ودخل عليه السيّاريُّ الشاعر ، فأخبره بالقصة فقال :

أخلاكَ من كل الهمومِ سقوطُهُ وأتاكَ بالفرجِ انفراجُ الخاتمِ
قدكان ضاقَ ففكَّ حلقَةَ ضيقِهِ فأمسك ،فما ريبُ الزّمانِ بدائمِ

فما أمسى حتى أرتفعت الداعيةُ لموتِ الهادي ، وصار الأمرُ إلى الرشيد، فأمر للسيّاري بعشرة آلاف درهم .((٤))يقدم النص نموذجاً واضحاً للاستدلال بالسرد في تحسين التطير من خلال البنية السردية التي رتبت الوقائع من الأزمة _ التي تمثلت برجوع يحيى إلى داره مغموماً بعد تهديد الهادي له بالقتل والحدث العارض التي تسبب في انكسار حلقة خاتمه وسقوط فصه وازدياد همه _ إلى الإنفراج والتحوّل عند دخول السياري الشاعر عليه الذي أعاد تأويل الحادثة ، محوّلاً دلالتها من نذير شؤم إلى بشارة و فرج ؛ إذ شبه انفراج الخاتم بانفراج الكرب وزوال الضيق وضمّن ذلك في بيتين شعريين يحملان إيقاعات تفاؤلية بالغة التأثير .ومن خلال التطابق اللاحق بين التأويل الذي قدّمه الشاعر، والواقع إذ لم تمض ساعات حتى مات الهادي فتحقق التأويل سريعاً بالانفراج وانتقال الحكم إلى الرشيد نلحظ أن السرد هنا لم يقَّدم كعرض محايد للوقائع ، بل تم توظيفه لإثبات أن قراءة الحدث الصغير بفأل حسن قد يصاحبه تحقق فعلي للفرج . ومما يجعل القصة برهاناً عملياً على جدوى حسن التطير ذكر الشخصيات التاريخية فيها ، مما يمنح

(١) المصدر نفسه : ١٧٧.

(٢) حجاجية النص السردي مقاربة بلاغية حجاجية لأخبار الجاحظ، محمد مشبال ، بحث ضمن كتاب الحجاج مفهومه وآلياته ١١٧٧/٢

(٣) السرد والحجاج : ١٧٧.

(٤) تحسين القبيح وتفبيح الحسن : ٣٢-٣٣.

السرد بعداً اقناعياً وبذلك يؤكد النص قدرة السرد على تحويل الموقف السلبي الى الايجابي لدى المتلقي .

في الغرض نفسه « ولما خرج طاهر بن الحسين إلى محاربة علي بن عيسى بن ماهان جعل ذات يومٍ في كُمّه دراهم للصّدقة على الفقراء ، ثم أسبل كُمّهُ ناسياً فأنتفضتْ الدراهمُ منه . فتطيّرَ من ذهابها في غير وجهها ، وأغتَّم لذلك فانتصبَ له من قال :

هذا تفرّقُ جمعِهم لاغيرُهُ وذهابُهُ منه ذهابُ الهمِّ
شيءٌ يكونُ الهمُّ نصفَ حروفِه لاخير في إمساكِه في الكّم

فتسلّى به وأمرَ له بِصلة ولم يدر الأسبوع حتى ظفر بابن عيسى» ((١)) يوظف السرد في النص كما رأينا في النموذج السابق بوصفه أداة أستدلالية تُحسن ما يتطيَّر به إذ يتحول الموقف السلبي الناجم عن سقوط الدراهم من كُمّ طاهر بن الحسين إلى دلالة تفاؤلية تُنبىء بتفرّق جمع العدو وزوال الغم ، مما يعزز دور السرد في ترسيخ التأويل الأيجابي بوصفه مسلكاً إقناعياً ذا فاعلية نفسية .

ب-الاستدلال بالمقارنة : يعد الاستدلال بالمقارنة من الآليات التي يوظفها الخطاب اللساني لتقوية الأحكام إذ أن « المقارنة في إطار الحجاج تستعمل لتقوية دليل يدعم خلاصة أو حكماً»(٢)ويتأسس هذا النوع من الحجاج على مقارنة بين عنصرين أو حالتين -بينهما تشابه أو أختلاف فالمقارنة يمكن ان تشمل الائتلاف أوالاختلاف ويمكن ان تكون ذاتية أو موضوعية((٣))بهدف ترجيح أحدهما على الآخر وتعد حجة المقارنة « حجة شبه منطقية حيث لاتسمح بأجراء وزن أو قياس فعلي غير أن أثرها الحجاجي يتشكل من تضمنها لفكرة أنه يمكن تدعيم الحكم الذي نطلقه بواسطة ضبط أو تدقيق بمعنى أنها توحي بوجود وزن أو قياس « ((٤)) فقوتها تكمن في تفعيل دور العقل عند عقد المقارنة لدى المتلقي ولاسيما إذا كانت المقارنة مبنية على معارف وثقافات مشتركة .ومما ورد منه لزعزعة الرؤية النمطية في الكتاب ما جاء في تقبيح النرجس : لما قبّح ابنُ الرومي الوردَ وهجّنه وهجاهُ وفضّلَ النرجس عليه تصدّى له نفرٌ من الشعراء بالمعارضة والمناقضة وهجو النرجسَ وفضلوا الوردَ عليه. فمنهم ابن الحاجب ومن أجود

(١) المصدر نفسه : ٩٣

(٢) الحجاج بين النظرية والأسلوب عن كتاب نحو المعنى والمبنى ، باتريك شاردور،تر،احمد الوردني ،دار الكتاب الجديدة المتحدة ط١، ٢٠٠٩ : ٨٨

(٣) ينظر الحجاج بين النظرية والأسلوب: ٨٨.

(٤) نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان ، الحسين بنو هاشم ، دار الكتاب الجديدة المتحدة ط١، ٢٠١٤: ٦٩

ما قال فيه قوله :

يا ظلوماً يفضّلُ النرجسَ الرذ ... لَ على الوردقد تحاملتَ فأقصدْ
صبغةُ الوردِ صبغةُ الدّمِ والنر ... جسُ مثل العيون في الشبه يوجدْ
ملك الجسمَ كلّه الدمُّ لا العيـ ... ـنُ ، عقول الورى بذلك تشهدْ
قد رأينا الأعمى يعيشُ بلا عيـ ... ـنٍ ، وإنْ يفقد الدمَ المرءُ يُفقدْ
وإذا كان ذا كذا فدمُ الانسـ ... ـانِ من عينه أجلُّ وأمجدْ
ولشتّانَ بين خدّين هذا ... أصفرٌ لونُهُ ، وهذا مورّدْ
فلماذا مدحتَ لونين كلٌّ ... منهما عيبُه مبين مؤكدْ
صفرةُ اللون علّةٌ والبياضُ الـ ... ـمحضُ عيبٌ محدّدٌ ليس يجحدْ[1]

يبدأ ابن الحاجب توجيه خطابه لمن فضل النرجس على الورد ويتهمه بالظلم والتحامل ويستنكر المفاضلة غير العادلة وليبرهن على أن الورد أحق بالمدح يبدأ بطرح المقارنات الإستدلالية التي تُعلي من شأن الورد وتقبح النرجس ففي البيت الثاني مقارنة استدلالية شكلية تعتمد اللون فلون الورد يشبه لون الدم والنرجس يشبه العين في لونه وينطلق من هذا الاستدلال للمقارنة الأعمق بين (الدم ، العين) فأختار أطرافاً جديدة تمثلهما لأن « المقارنة تستهدف الإثارة أكثر مما تسعى إلى الإخبار فأن أختيار طرف المقارنة يجب أن يحظى بعناية كبرى لأنه يلعب دوراً أساسياً في فعالية الحجة « »[2] فمن خلال الدم والعين في البيتين الثالث والرابع يبدأ بطرح مقدمات عقلية فالدم يسيطر على جسم الإنسان كله لا العين ليقدم بعد ذلك استدلالاً تجريبياً مقارناً فمن يفقد عينه يعيش لكن من يفقد دمه يموت؛ ليخرج بنتيجة مفادها إن دم الأنسان أجل وامجد من عينه ثم يدعم النص بمقارنة لونية بين (خد أصفر ، خد مورد) الذي يشير إلى جمال اللون الأحمر الذي يمثل لون الورد وقبح اللون الأصفر الذي يمثل لون النرجس ولازالت المقارنة اللونية قائمة لإثبات ان كلا اللونين الموجودين في النرجس (الأصفر ، الأبيض) عيب لامدح فيه .ومن هذا المقارنات الاستدلالية التي أعتمدت اللون والوظيفة والقيمة الجمالية أساساً لها نصل بها تصاعدياً إلى نتيجة نهائية مفادها تقبيح النرجس وتفضيل الورد عليه .

ومن الاستدلال بالمقارنة أيضاً ما ورد في تحسين الفقر : « قال بعضُ الحكماء: الفقيرُ مخفٌّ آمنٌ ولا عدوَّ لهُ ، والغنيُّ مثقلٌ خائفٌ ولاتحصى أعداؤه »[3]يعتمد النص آلية حجاجية تقوم على الاستدلال بالمقارنة بين حالتين إجتماعيتين متضادتين (الفقر ، والغنى) بهدف تحسين صورة

(١) تحسين القبيح وتقبيح الحسن : ١١٣-١١٤
(٢) .نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان : ٧٠
(٣) تحسين القبيح وتقبيح الحسن : ٤٠.

الفقر وتقبيح الغنى . ويُجري هذا الاستدلال مقارنة دقيقة من الناحيتين النفسية والاجتماعية ، إذ تطرح مقدمات تُظهر أن الفقير خفيف وآمن لاعدو له ، في حين يصوّر الغني مثقلا بالخوف وكثرة الأعداء وتقود هذه المقارنة إلى نتيجة ضمنية مفادها أن الفقر أفضل من الغنى مما يحقق قلبا للأحكام الاجتماعية المألوفة ويمنح الحكم طابعاً مقبولاً .

ج-الاستدلال بحجة التعدية : يُعد الاستدلال بحجة التعدية من الآليات الحجاجية الفاعلة التي تسهم في بناء الإقناع اللساني، إذ يقوم على مبدأ التوسع في العلاقات المنطقية بين الأطراف .((١))ونعني بها « الخاصية الصورية التي تمكن من المرور من إثبات وجود علاقة بين طرف أول (أ) وطرف ثان (ب) ، وبين هذا الثاني وطرف ثالث (ج) ، الى استنتاج وجود العلاقة نفسها بين (أ) و(ج) « ((٢)).فهي إذن طريقة استدلالية تعتمد تمرير الحكم من علاقة قائمة بين طرفين إلى طرف ثالث ، استناداً إلى اشتراكهما في صفة أورابط مشترك ، بما يفضي إلى نتيجة منطقية أكثر تماسكا واتساعاً.

ومما ورد منها في تقبيح الولد : « قال لي أبومحمد عبد الله بن إسماعيل الميكالي إنما صار ولدُ الولد أحبَّ إلى الرجل من ولده لصلبه ، لأنَّ الولدَ عدوه كما قال الله عزوجل ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ وولدُ الولد عدوّ العدو وعدو عدوك صديقك في أغلب الحالات «.((٣))

يعتمد النص على توظيف حجة التعدية لبناء نتيجة تفسيرية تسهم في إقناع المتلقي بظاهرة شعورية متداولة تتمثل في ميل الرجل إلى ولد الولد أكثر من ميله إلى ولده من صلبه هذا الميل الذي يبدو وجدانياً في ظاهره يدعمه المتكلم بدليل ديني يتمثل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾((٤)) ليؤسس عليه حكماً مبدئياً يرى في الولد مصدراً محتملاً للعدواة . وعبر هذا المرتكز تفعل آلية التعدية الحجاجية وفق تسلسل علائقي يقوم على تمرير الحكم بين ثلاثة أطراف :

الأب : (أ)

الابن : (ب) عدو للأب

ولد الولد: (ج) عدو للابن (ب)

(١) ينظر الحجاج بين النظرية والاسلوب : ٨٩.

(٢) نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان : ٦٦

(٣) تحسين القبيح وتقبيح الحسن : ١٠٧

(٤) .سورة التغابن :١٤

وبما أن عدو العدو صديق فأن (ج) ولد الولد يكون صديقاً وأحب إلى (أ) .فبنيت الحجة على منطق تعدية العدواة ؛ لتنتج علاقة عاطفية معكوسة يفضل فيها الحفيد على الابن مما يمنح النتيجة قوة منطقية تسهم في تقبيح صورة الولد وتحسين صورة ولد الولد في مسار حجاجي متماسك .

د ـ الاستدلال بالحجج الجاهزة : وهي الحجج التي تستمد قوتها من حضورها في الوعي الجمعي ، كالاستشهاد بالنصوص الدينية ، و الشعر ، والأمثال والأقوال المأثورة والحكم ، وتتميز هذه الحجج بكونها لاتحتاج الى تأسيس منطقي لرسوخها في ذهن المتلقي .وقد أفاد الثعالبي من هذه الآلية في بناء خطابه إذ أدرج نصوصاً كثيرة في كتابه منها : قوله في تقبيح الغنى : « قال الله عزوجل ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى *أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾*وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾**»((١))وقوله في تحسين الحجاب : « لم يحسنه أحد كتحسين أبي تمام أياه واشتهاره عليه في قوله لعبد الله ابن الطاهر:

يأيها الملكُ النائي برؤيته ... وجوده لمراعي جوده كثبُ
ليس الحجابُ بمقص عنك لي أملاً ... إنّ السماءَ لتُرجى حين تحتجبُ((٢))

ومنها أيضاً ماورد في تحسين البخل : قوله « من أمثال العرب (الشحيحُ أعذر من الظالم)» ((٣)) فهذه النصوص لاتحتاج إعمال نظر وإجهاد فكر للوصول الى نتائجها ، فالاحتكام إليها يمنح الخطاب صبغة من الأصالة والتأثير.

ه- تراكم الحجج وتكامل الاستدلالات : لا يكتفي الخطاب الإقناعي أحيانا بحجة واحدة بل يتقوى بتراكم الحجج وتكاملها داخل الخطاب « ويتمثل هذا الاسلوب في استعمال عديد الحجج لخدمة دليل واحد «((٤))إذ « إن عدد الحجج في الخطاب غير محدد بشكل قَبلي «((٥)) فالمتكلم قد يلجأ إلى تقديم حجج متعددة ومتكاملة لتدعيم فكرة ما وتقويتها من جهات مختلفة ليضمن التأثير في مختلف أنماط المتلقين فالتراكم الحججي مظهر من مظاهر الوعي الحجاجي

(١) تحسين القبيح وتقبيح الحسن : ٩٤
*سورة العلق :٦،٧.
** سورة التغابن : ١٥
(٢) المصدر نفسه : ٥٥-٥٦
(٣) .تحسين القبيح وتقبيح الحسن : ٥١
(٤) الحجاج بين النظرية والاسلوب : ٩٦.
(٥) نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان : ١٠٢.

المتقدم إذ يعد بيرلمان « إن مسألة سعة الحجاج خاصية مميزة فيه «[١]» تتكيف مع المقصدية الاقناعية . ولا تنفصل هذه الحجج عن بعضها البعض بل تبنى ضمن منطق تدريجي إذ تمهد كل حجة للأخرى فيتحقق بذلك تكامل استدلالي يغني الفكرة ويزيد من عمقها وإقناعها لدى المتلقي . ومن هنا فأن دراسة تراكم الحجج وتكامل الاستدلالات لاتسلط الضوء على آلية الإقناع بل تكشف أيضاً عن استراتيجية الثعالبي في إعادة صياغة المنظور القيمي وفق رؤية تستند إلى منطق لغوي متين ومن هذه النصوص التي تظهر هذا التراكم الكمي الحججي النص الوارد في تحسين المتعلم والتعليم « أحسنُ وأجمعُ ما سمعتُ وقرأتُ فيه من كلامٌ لأبي زيدٍ البلخي من رسالةٍ كتبها وقد عُيّرَ بأنه معلّم وقيل له إنَّ المعلّمَ ساقط مذموم قبيحُ الاسم . فقال فيها : ليس يستغنى أحدٌ عن التعلُّم والتعليم لأن الحاجة يُضطرُّ إليها في جميع الديانات والآداب والصناعات والمذاهب والمكاسب فما يستغني كاتبٌ ولاحاسبٌ ولا صانعٌ ولا بائعٌ عن أنْ يتعلَّم صناعةً ممن هو أعلمُ منه ويعلّمه من هو أجهلُ منه وقوام الخلق بالتعلم والتعليم . فالمعلم أفضلُ من المتعلِّم لأن صفة المعلم دالة على التمام والإفادة والتعلم صفته دالة على النقصان والاستفادة وحسبك جهلا من رجل يعمد إلى فعلٍ قد وصفه الله سبحانه نفسه به ثم رسوله عليه السلام فيذمه أليس قد قالَ اللهُ عزوجل : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ وقال : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾وقال في وصف نبيّه (عليه السلام) : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾».[٢]»

يختار الثعالبي نصاً استدلاليًا لافتاً ينحو به إلى بناء موقف إقناعي في تحسين التعلم والتعليم إذ يستعرض رسالة لأبي زيد البلخي دفاعاً عن منهة التعليم بعدما وصف بالذم والسقوط ؛ ليتشكل دفاعه عبر بنية حجاجية قائمة على تعدد الاستدلالات وفق نسق تراكمي إذ ينطلق البلخي من الاستدلال العقلي :(ليس يستغنى أحدٌ عن التعلُّم والتعليم لأن الحاجة يُضطرُّ ..)الذي يقرر فيه ان التعلم والتعليم أمران لايستغنى عنهما في جميع المجالات مما يجعل الحاجة إلى التعليم ليس خياراً ثانوياً بل أمراً ضرورياً فتمثل هذه الحجة العتبة الفعلية للنص وتشكل قاعدته الاقناعية . ثم يعزز هذه الحجة بحجة التمثيل إذ يستعرض فيها أمثلة من الفئات الاجتماعية التي لا تستغني عن التعليم (كاتب ولاحاسب ولا صانع ولا بائع ...) التي تعمل على تقريب المعنى للمتلقي فصلاح الناس واستمرار حياتهم يقوم على تبادل المعرفة بين المتعلم والمعلم وهذا التمثيل هودعم للحجة الفعلية السابقة ؛ لينتقل بعد ذلك على حجة الاستدلال بالمقارنةإذ يقارن بين طرفين فالمعلم أفضل من المتعلم وهي مقارنة نوعية تشتغل على محور القيم وترفع من شأن المعلم

(١) المصدر نفسه : ١٠١

(٢) تحسين القبيح وتقبيح الحسن : ٣١-٣٢

معللاً ذلك بألفاظ (التمام والإفادة للمعلم، والنقصان والاستفادة للمتعلم) .وينتقل البلخي بعد ذلك انتقالاً ذكياً بايراد حجة الاستدلال الديني القائم على الاحتجاج بالآيات القرآنية إذ يورد ثلاث آيات من القرآن الكريم(١) تؤكد أن التعليم من صفات الله سبحانه وتعالى مما يكسب الخطاب بعداً إقناعياً لايمكن إنكاره ويمكن أن نمثل لتراكبية الحجج وتكاملها وصولاً إلى النتيجة كالآتي: النتيجة النهائية شرف مهنة التعليم وعلو مكانته

الحجة الرابعة الاستدلال الديني (بالآيات القرانية)
الحجة الثالثة الاستدلال بالمقارنة (المعلم افضل من المتعلم)
الحجة الثانية الاستدلال بالتمثيل (فما يستغني كاتب ولاحاسب ..)
الحجة الأولى الاستدلال العقلي(ليس يستغني أحد عن التعلم والتعليم ..).

فنلحظ تصاعد الحجج نحو النتيجة النهائية شرف مهنة التعليم فكل حجة تبنى فوق سابقتها في تدرج يجعل النتيجة مقبولة بل وضرورية في وعي المتلقي فمثل النص نموذجاً متكاملاً لتراكم الحجج وتكامل الاستدلالات لخدمة الاقناع اللساني .

(١) ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ سورة البقرة :٣١،و ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾سورة الكهف :٦٥، ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ سورة ال عمران : ٤٨

الخاتمة

· مثل كتاب الثعالبي نصاً حوارياً جدلياً بتبنيه التحول القيمي ، فحسّن ماجرى العُرف على تقبيحه وقبّح ما تعارف الناس على حسنه متجاوزاً بذلك بنية الخطاب التقليدية ، ليؤكد أن الحسن والقبيح ليسا قيمتين مطلقتين ، بل متغيرتين تبعاً السياق.

· انتظمت وسائل الإقناع اللسانية في أنساق الخطاب البنائية وتفاعلت في صياغة منطقه الحجاجي وتوجيه مساره الإقناعي ، حتى غدت نسقاً كلياً التحم في بنية الخطاب يستهدف استمالة المتلقي واخضاعه لفكرة ما.

· برزت الآليات البلاغية بوصفها سمة مركزية في بنية الخطاب التواصلي وركناً أساسياً في صناعة التأثير والتوجيه إذ أسهم التشبيه في تقريب المعاني المجردة ، وجاءت الإستعارة تشكيلة خطابية قادرة على إبلاغ المقاصد وإنجاز الغايات فيما مثل الجناس وسيلة لسانية ربطت بين الشكل والمضمون .

· نهضت الاستدلالات اللسانية بدور فاعل في بناء الحجة وتوجيه المتلقي نحو تبني فكرة أو موقف معين ولم تقتصر النصوص على إيراد حجة واحدة بل راكمت الحجج بأسلوب يتكيف مع المقصدية الإقناعية للخطاب مما أغنى الفكرة وزادها عمقاً.

· شهدت الآليات البلاغية واللسانية المتوافرة تجاوراً لبنية التضاد الذي كان حاضراً يؤازر البنى الإقناعية في النصوص ؛ لتحقيق عنصر المفارقة الذي بني عليه الكتاب .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١. الايضاح في علوم البلاغة ، جلال الدين محمد بن بن عبد الرحمن الخطيب القزويني ، وضع حواشيه ، ابراهيم شمس الدين ، ط١، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، ١٤٢٤، ٢٠٠٣.

٢. الاستدلال البلاغي ، شكري المبخوت ، دار الكتاب الجديدة المتحدة ط١، ٢٠٠٦.

٣. استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية ، عبد الهادي ظافر الشهري ، دار الكتاب الجديد المتحدة ط١، ٢٠٠٤.

٤. أسرار البلاغة في علم البيان ، عبد القاهر الجرجاني ، تحق : عبد الحميد هنداوي ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان ،ط١، ٢٠٠١.

٥. بلاغة الإقناع دراسة نظرية تطبيقية ، عبد العالي قادا ، ط١، كنوز المعرفة ١٤٣٧هـ. ٢٠١٦م.

٦. تاريخ نظريات الحجاج ، فبيليب برتون ،جيل جوتييه ، ترجمة د.محمد صالح ناجي الغامدي مركز النشر العلمي جامعة الملك عبد العزيز ، ط١، ٢٠١١.

٧. تحسين التقبيح وتقبيح الحسن ، ابومنصور الثعالبي، تحقيق: شاكر العاشور ، ط١ ، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.

٨. التداولية والحجاج مداخل ونصوص ، صابر الحباشة ، ط١ ،٢٠٠٨.

٩. التلخيص في علوم البلاغة ، جلال الدين عبد الرحمن الشافعي الدمشقي المعروف بالخطيب القزويني ، حققه وشرحه، د. عبد الحميد هنداوي ، منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان

١٠. جدلية الافراد والتركيب في النقد العربي القديم ، محمد عبد المطلب ، الشركة المصرية العالمية ـ لونجمان ط١ ، ١٩٩٥.

١١. الحجاج بين النظرية والأسلوب عن كتاب نحو المعنى والمبنى ، باتريك شاردور، ترجمة د. أحمد الوردني ، دار الكتاب الجديدة المتحدة ، ط١ ، ٢٠٠٩.

١٢. الحجاج مفهومه ومجالاته ، دراسات نظرية تطبيقية محكمة في الخطابة الجديدة ، تأليف مجموعة مؤلفين ، ابن النديم للنشر والتوزيع ، ط١، ٢٠١٣.

١٣. دمية القصر وعصرة أهل العصر ، علي بن الحسن الباخرزي ،تحق محمد التونجي ،دار

الجيل بيروت ط١، ١٩٩٣.

١٤. الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي ، مطبعة المقتطف مصر(د.ط) ١٩١٤م.

١٥. الفروق اللغوية ، ابو هلال العسكري ، علق ووضع حواشيه محمد باسل عيود السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ط٣، ٢٠١٣.

١٦. كتاب البديع ، عبد الله ابن المعتز ت (٢٩٦هـ)، اعتنى بنشره وتعليق المقدمة والفهارس اغناطيوس كراتشقوفسكي ، دار المسرة - بيروت ، ط٣، ١٤٠٢- ١٩٨٢.

١٧. كتاب الصناعتين الكتابة والشعر ،لابي هلال العسكري ،تحق: محمد علي البجاوي ،محمد ابو الفضل ابراهيم ،دار الفكر العربي د.ت

١٨. لسان العرب ،جمال الدين محمد بن منظور ، عداد يوسف الخياط ،دار لسان العرب ،(د.ط)،(د.ت)

١٩. اللسان والميزان ، طه عبد الرحمن ، الدار البيضاء ، المركز الثقافي العربي ، ط٢، ٢٠٠٦، ٣١٣.

٢٠. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ضياء الدين ابن الأثير ، قدمه وحققه وعلق عليه ، أحمد الحوفي ، د. بدوي طبانة ، مطبعة النهضة ، مصر الفجالة ، ط١، ١٩٦٠.

٢١. مفتاح العلوم ، ابويعقوب يوسف بن محمد السكاكي (ت ٦٢٦هـ) ، تح: د. عبد الحميد الهنداوي ، مشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، ط١، بيروت ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

٢٢. منهاج البلغاء وسراج الإدباء ، حازم القرطاجني ، تح ،محمد بن خوجة ، دار المغرب ، د.ت ، د.ط

٢٣. نزهة الألباء في طبقات الأدباء ،لابي البركات الأنباري ، تحق : ابراهيم السامرائي ، مكتبة المنار ، ط٣، ١٩٨٥ .

٢٤. نظرية الحجاج تطبيق على نثر ابن زيدون ، عزيز لدية ، عالم الكتب الحديث ، أربد . الأردن ٢٠١٥.

٢٥. نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان ، الحسين بنو هاشم ، دار الكتاب الجديدة المتحدة ، ط١، ٢٠١٤.

٢٦. الوافي بالوفيات ،صلاح الدين بن ايبك الصفدي ،تحق :احمد الارؤناط،وتركي مصطفى ،دار احياء التراث العربي ط١.

المجلات والدوريات :

١. حول التقنين الارسطي لطرق الإقناع ومسالكه مفهوم الموضوع ، حمو النقاري ، مجلة كلية الاداب والعلوم الانسانية بفاس ، العدد ٩١، ١٩٨٧.

٢. السرد والحجاج ، تيري هيرمان ، ترجمة د. كمال الزماني ، مجلة التواصل الأدبي ، المجلد ١٣، العدد ٢، ٢٠٢٤.

٣. الصورة والثقافة والاتصال ، محمد العبد ، فصول مجلة النقد الادبي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، العدد ٦٢/ ربيع وصيف ٢٠٠٣.

٤. آليات الاستدلال الحجاجي في اللسانيات ، حافظ اسماعيلي علوي ، مجلة الخطاب ، العدد١٨.